بحوث في الأدب المقارن (فصليّة علميّة – محكّمة)
كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة رازي، كرمانشاه
السّنة السّابعة، العدد ٣٢، شتاء ١٣٩٧ هـ. ش/ ١٤٤٠ هـ. ق/ ٢٠١٨ م، صص ١٦٥-١٨٤

صورة الآخر الشرقي في أدب الرحلات لغادة السمان
«كتاب شهوة الأجنحة نموذجا»[١]

هادي نظري‌منظم[٢]
أستاذ مساعد في قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة تربيت مدرس، طهران، ايران
خليل پرويني[٣]
أستاذ في قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة تربيت مدرس، طهران، ايران
نازنين هدايتي[٤]
ماجستيرة في فرع اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة تربيت مدرس، طهران، ايران

الملخّص
يدرس علم الصورة في معناه الخاص صورة الآخر وثقافته في النص الأدبي، ويتناول تفاعله مع الأنا بالبحث. والحقيقة أن الوعي بالذات يمرّ بالآخر، والشعور بالهوية يبرز في مواجهته، ويتمثل قدر كبير من هذا التفاعل في أدب الرحلات. أصدرت السمان لحد الآن خمسة أعمال في أدب الرحلات توفر مادة دسمة للدراسات الصورولوجية. وهذا البحث باعتماد المنهج الوصفي- التحليلي ومن خلال التركيز على المنهج الاجتماعي والمقارن يحاول أن يلقي الضوء على الجزء الأول من كتابها: «شهوة الأجنحة»، المكرس على «الشرق الأقصى»، وذلك لفهم خصوصية الأنا والآخر والأوهام والانحرافات الفكرية لكل منهما تجاه الآخر. والنتائج تدل على أن الرحلة إلى الشرق الأقصى تمت للهرب من الواقع الأليم، والسعي نحو المجهول، بعد ما أصيبت السمان بالاغتراب الروحي؛ أما الهرب من الواقع فلم يتحقق؛ إذ إن صورة لبنان ودمشق تطلّ من ثنايا كل سطر، ومن تضاعيف أي مشهد. ويبدو أن السمان تأثرت مسبقا بانطباعات أدباء الغرب الرومانسيين عن الشرق الساحر والغامض؛ كما أنها زارت الشرق الأقصى مباشرة؛ فتجربتها حضورية مباشرة، ومتأثرة في الوقت نفسه بالصور والنصوص السابقة. والسمان أديبة أوّلاً، ثم رحّالة ثانياً، فتأخذ عناصر لوحاتها الفنية والأدبية من الواقع الأليم أو السارّ ثم تُضفي عليها كثيراً من الألوان والظلال حتى تخرج في شكلها الفني والمؤثر، مع هذا كله تبدو غالباً موضوعية وصادقة وتتجنب – قدر الإمكان- الوقوع في فخّ التعميم والتشويه السلبي، ولكن مع المدن لا حياد، والموضوعية أكذوبة. ثم إن الاختلاط مع الشعوب المختلفة وضعت أمامها مجالا طيبا للمقارنة ودفعها إلى الإعجاب بحضارة الشرق الأقصى العريقة، وبجمالها وسحرها، مثلما حملها على شجب مظاهر التخلف والفقر والخرافة في هذا الشرق واستغراق أهله في الحياة الاستهلاكية والحضارة المادية.

الكلمات الدّليليّة: الأدب المقارن، علم الصورة، الشرق الأقصى، الأنا؛ الآخر، غادة السمان، شهوة الأجنحة.

---

١. تاريخ الوصول: ١٤٣٩/١/٢٧ تاريخ القبول: ١٤٣٩/٩/٢٥
٢. العنوان الإلكتروني للكاتب المسؤول: hadi.nazari@modares.ac.ir
٣. العنوان الإلكتروني: parvini@modares.ac.ir
٤. العنوان الإلكتروني: nazaninhedayati@modares.ac.ir

١.المقدمة

١-١. إشكاليّة البحث

يعتبر البحث في ميدان الصور من المجالات المستحدثة في الأدب المقارن، والحقيقة أن «لفظة «علم الصورة» من الجدّة بحيث لا نجد معادلا لها حتى في القواميس الجديدة». (نامورمطلق، ١٣٨٨: ١٢١) ويمكن القول إن مفهوم الغيرية والآخر قد تأسس بعد أن خلق اللهُ العالم؛ أي عندما رفض الشيطانُ السجودَ للإنسان استكباراً وقال: «أنا خيرٌ منه خلقتَني من نار وخلقتَه من طين». (الأعراف: الآية ١٢) ومنذ ذلک الحين أخذت الأنا تشعر بوجود هذا الآخر وباختلافها عنه. والأنا تُبنَى أصلا بالعلاقة مع العالم، والوعي بالذات يمرّ بالآخر، والشعور بالهوية يبرز في مواجهته؛ فالأنا والآخر ركنان أساسيان في علم الصورة، الذي يُعنَى بدراسة موضوع الآخر في جميع ألوانه وهيئاته. يقول باجو: «كل صورة تنبثق عن إحساس- مهما كان ضئيلا- بـ«الأنا» بالمقارنة مع «الآخر» و بـ«هنا» بالمقارنة مع «مكان آخر». الصورة هي إذاً تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي». (باجو، ١٩٩٧: ٩١) وإن شئت فقل: «الصورة تمثيل فردي أو جماعي يدخل فيها -في وقت واحد- عناصر ثقافية وتأثيرية، موضوعية وذاتية. فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يريد أهله أن يراه. بمعنى أن العناصر التأثيرية تفوق العناصر الموضوعية». (بيشوا وروسو، ٢٠٠١: ١٤٤)

١-٢. الضّرورة والأهمّيّة والهدف

صورة الآخر كانت وماتزال تتعرض إلى تزييف متبادل وتشويه مبرمَج، وذلک تحت تأثير الأحداث السياسية والصراعات العقائدية والاستراتيجية التي تعصِف بالشعوب، وقد نتج عن هذا كله خطاب أدبي مضطرب ومنحرف يقوم على الروح العدائية، والرغبة في قولبة الآخر في صور مشوهة تُذكي نار سوء التفاهم بين الشعوب، وتدفع الأمم والدول والثقافات إلى التخاصم والتشاحن. ومن هنا نشأ علم الصورة الذي يؤدي دوراً خطيراً في تصحيح نظرة الشعوب بعضها إلى بعض، ويتيح لنا فهم خصوصية الأنا ويبدد أوهامه وانحرافاته الفكرية والشعورية، مثلما يتيح لنا فهمَ خصوصية الآخر؛ فيمهّد لثقافة ينفتح فيها الإنسان على أخيه الإنسان ويحترم ما يميّزه. والأدب المقارن يفسح المجال واسعا لدراسة أدب الرحلات، «لأنها المعين الذي يمتاح منه أي شعب معلوماته عن شعب آخر». (مكي، ١٩٨٧: ٣١٦) وغادة السمان رحالة وأديبة مبرّزة إلا أن أياً من أعمالها الخمسة في أدب الرحلات لم يحظَ بعدُ بدراسة صورولوجية، لا في إيران ولا في الأقطار العربية. ومن هنا تمت هذه الدراسة لإلقاء الضوء على الآخر الشرق الأقصوي في كتابها المعنون بشهوة الأجنحة.

١-٣.أسئلة البحث

١. كيف يتجلى الآخر الشرق الأقصوي في كتاب شهوة الأجنحة؟
٢. ما هي حالات فهم الآخر وقرائته في الكتاب المذكور؟

١-٤. خلفيّة البحث

قد أنجزت دراسات عديدة عن غادة السمان في الأقطار العربية وفي إيران، منها مثلا: بثينة شعبان في مقالها بعنوان:«بين الأدب النسائي العربي والأدب النسائي الإنكليزي:غادة السمان وفيرجنيا وولف»(١٩٨٦) وغسان السيد في كتاب له بعنوان: الحرية الوجودية بين الفكر والواقع (لاتا) وقام فيه بمقارنة موضوع حرية المرأة عند السمان وسيمون دوبوفوار؛ كما درس البعض صورة الآخر في «روايات» السمان، منهم عبدة عبود في مقاله: «صورة الآخر الغربي في أدب غادة السمان» (٢٠٠٢) والمقالة

موجزة، وهي تفتقر إلى التحديد الدقيق وتخلو من المباحث النظرية ولكنها تحوي بعض إشارات قيمة؛ وثمة أيضا سمية شنوف في رسالتها الجامعية: تمظهر الآخر فى روايات غادة السمان(٢٠٠٥) ونشر ملخص منها في مجلة الإنسانيات (أربع صفحات). وثمة كتاب بعنوان:إشكالية الأنا والآخر«نماذج روائية عربية» (٢٠١٣) والكتاب من تأليف ماجدة حمود وفيه فصل بعنوان: الأنا في مرآة الفرنسي إثر الحرب الأهلية اللبنانية في رواية غادة السمان «سهرة تنكرية للموتى». وثمة رسالة جامعية نوقشت في إيران وعنوانها:صورة الآخر في رواية «سهرة تنكرية للموتى» لغادة السمان (١٣٩٣) والباحثة تناولت الآخر في الرواية المذكورة بالدرس. وللآخر- بأنواعه المختلفة- حضور نشيط وملحوظ أيضا في «أدب الرحلات» عند السمان، لكنه لم يحظَ بعدُ بعناية الباحثين في الأقطار العربية وفي إيران -كما سبق- ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة وجدّتها.

١-٥. منهجيّة البحث والإطار النّظري

منهجنا العام في هذا البحث وصفي-تحليلي، ويهتم على نحو خاص بعلاقة الصور المقدمة عن ثقافة الآخر مع الزمن والمكان الذي نشأت فيهما تلك الصور؛ فهو اجتماعي ومقارن، وقد انطلقنا فيه من لغة الكاتبة ونصوصها في الأغلب الأعمّ، بدلاً من إعادة صياغة هذه اللغة والأفكار بلغة ثانية قد لا تتطابق مع الأصل. ثم إننا حاولنا أن نصنف إشاراتها المبعثرة عن الشرق الأقصى ضمن عناوين فرعية مبتكرة تندرج تحتها انطباعاتها وملاحظاتها وذلك بغية التوصل إلى نتائج أعمق.

والأنا والآخر من المصطلحات الأساسية في أي دراسة صورولوجية؛ لذا نرى لزاما علينا أن نقدم تعريفاً موجزاً لهما لغة واصطلاحا: الأنا لغةً ضمير مفرد يخصّ المتكلم ولا تثنية له إلا بنحن. يصلح نحن في التثنية والجمع. (ابن منظور: مادة أنا) والأنا عند علماء النفس ترتبط بالشخصية الإنسانية وكل إنسان تنقسم شخصيته إلى ثلاثة فروع: الهو / الأنا / الأنا الأعلى. (أنظر: السليماني، ٢٠٠٩: ١٠٠). أما الأنا عند بعض الأدباء والنقاد فتقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية: الأنوات الفردية أو الشخصية؛ الأنوات الاجتماعية؛ والأنوات البشرية التي تتجاوز الحدود الضيقة للزمان والمكان. (أنظر: شفيعي كدكني، ١٣٨٧: ٨٧-٨٨)

والآخر لغةً هو «غير»،كقولك: رجل آخر. (ابن منظور: مادة أخر)؛ أما الآخر في المعنى القريب البسيط فهو «أشدّ تنوعا مما نظنه في البدء» (نانكت، ١٣٩٠: ١٠١) وذلك لأن في الوجود الإنساني آخر دينيا ومذهبيا وقوميا وعرقيا وجغرافيا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا؛ فتتعدد دوائر الآخر ومستوياتها بتعدد دوائر الأنا ومستوياتها؛ فقد يكون الآخر هو المقياس الذي من خلاله يتعرف الأنا إلى حضوره على المستويات كافة. ويختلف تحديد الآخر تبعا لموقع الناظر إليه؛ فالآخر بالنسبة للذات الدينية هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر، أما الآخر بالنسبة إلى الذات القومية أو العرقية فهو الذي ينتمي إلى قومية أو عرقية أخرى. (الهروط، ٢٠٠٨: ١٣)

وقد ذكروا لحالات فهم الآخر وقراءته ثلاث حالات، الأولى: التشوية السلبي، والمقصود به حالة العداء للآخر؛ فيبرز عند ذلک، الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى من المحلي، وفي هذه الحالة تكون وظيفة صورة الآخر إثارة مشاعر العداء تجاه الآخر، ومشاعر الولاء والتضامن والتوحد تجاه الذات أو الأنا. الحالة الثانية: التشويه الإيجابي، وفيه يرى الكاتب الواقع الثقافي الأجنبي متفوقا بصورة مطلقة على الثقافة الوطنية الأصلية، لذلک تعدّ نفسها في مرتبة أدنى. والحالة الثالثة: التسامح، وفيه تنطلق دراسة الصورة من رؤية متوازنة للذات والآخر. (للتفصيل، انظر: حمود،٢٠٠٠: ١١٩-١٢٠)

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن «سلوك الفرد تجاه الآخر يتأثر بالانطباع الذي يتكون عنه استنادا إلى طريقة الإدراك وكيفية التعامل مع المكون الثقافي والاجتماعي لهذا الآخر، حيث ينبثق من هذا الإدراك والتعامل تفاعل متبادل بين الأنا الفردية أو الاجتماعية والآخر، وتتفاوت درجة إيجابية هذا التفاعل وسلبيته بتباين هذا الإدراك». (شحاتة، ۲۰۰۱: ۴۰)

وأما الرحلة فهي قديمة قدم الإنسان ذاته، وإنها لعبت دورها في الكشف الجغرافي، والاتصال بين الشعوب، وتعريف الواحد بالآخر؛ «فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونُظُم حكمهم، غالبا ما تضع أمام الفرد مجالا طيبا للمقارنة، كما تساعده –ولا شك– على تقييم نُظُم وتقاليد بلده وموطنه. ولكون الفرد يتشكل عامة في إطار معين من التقاليد والعادات التي ينشأ عليها ويألفها فإن حكمه على الشيء المخالف لها يأتي عادة محمّلاً بقدر كبير من التعسف والتحيز». (فهيم، ۱۹۸۹: ۱۷)

وللارتحال أسباب ودوافع مختلفة؛ فـ«إلى جانب أولئك الذين كانوا يرتحلون حبا في الرحلة أو طلبا للثقافة ينبغي أن نذكر الرحالة على رغمهم». (بيشوا و روسو، ۲۰۰۱: ۸۹) ومهما يكن فقد تحدث الرحالة في كتبهم عن النظم والتقاليد والعادات والطقوس المختلفة عند سائر الأقوام والجماعات، ومهدوا بذلک لترسيخ مجموعة من الانطباعات العامة والتصورات عن الشعوب الأخرى. فلأدب الرحلات فضل كبير في «البحث عن الآخر والكشف عن صورته؛ وكتب الرحلات مادة غنية تُسهم بشكل كبير في اكتشاف الآخر وفهم الذات في مرايا هذا الآخر». (شحاتة، ۲۰۰۱: ۴۰) وقد نتج عن هذا كله أيضا ظهور المضمون الإثنوجرافي في معظم المؤلفات عن أدب الرحلات. والإثنوجرافيا[1] «كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة». (فهيم، ۱۹۸۹: ۴۳-۴۴)

إن أدب الرحلات من الوثائق الأصلية التي تثبت قدم الصراع الفكري والحضاري بين الأنا والآخر:«الإحساس بالمفارقات الفكرية بين الأنا والآخر، وهذا يتضمن مبدأ التنازع بين الأضداد وحيرة المواقف بين الثابت والمتحول، بين الموروث الأصيل والمجتلب المقتبس». (سابايارد، ۱۹۷۹: ۱٦) ثم من المفيد الإشارة إلى التباين القائم بين رحالة كل عصر في النظرة إلى الغير وثقافته؛ فـ«بينما تشكلت مثلا نظرة الرحالة القدامى إلى ثقافة الغير فى إطار«التزيين والتقبيح» على أساس مفاضلة ثقافة الذات على الغير، فإن نظرة الرحالة المحدثين تقوم على أساس التعلق بأهداب الموروث، مع الشغف فى الأخذ بالمستحدث». (فهيم، ۱۹۸۹: ۱۷٦)

يبقى بعد هذا أمرٌ تجدر الإشارة إليه، ومؤدّاه أن «التفاوت الحضاري بين الكاتب وبين من يكتب عنهم أمرٌ له دوره الخطير في الأحكام التي يُطلقها الكاتب، كما أن الموقف السياسي له يَحكم طريقتَه في تناول الأحداث». (عبدالعزيز، ۲۰۰۲: ۲۵۷/۲) وسنرى أثر هذا التفاوت وهذا الموقف بارزاً في رحلات السمان.

1. Ethnography

٢- البحث و التّحليل

٢-١.الهرب من الواقع والوعد بالموضوعية والحياد

غادة السمان[1] شاعرة، وصحفية ورحّالة سورية، وأديبة عربية كبرى. صار أدبها عالميا بعد ما تُرجم الكثير من مؤلفاتها إلى مختلف اللغات. درست اللغة الإنكليزية وآدابها في جامعات دمشق وبيروت ولندن والقاهرة، «فمن البدهيّ أن تؤدي تلك الدراسة إلى تأثر الكاتبة بالأدب الإنكليزي وبالآداب الأوروبية الأخرى». (عبود، ٢٠٠٢: ٦٤) صدر عن السمان خمسة أعمال في مجال أدب الرحلات، أولها «الجسد حقيبة سفر»، الذي اقتصرت رحلاتها فيه على مدن في أوربا الغربية وأخرى عربية؛ يليه «شهوة الأجنحة»، وفيه نرافق السمان إلى الشرق الأقصى لنزور بانكوك ومانيلا وسنغافورة وهونغ كونغ وسواها، ثم ترحل غربا إلى الولايات المتحدة. وقد أشارت المؤلفة نفسها أن أكثر مقالاتها عن الشرق الأقصى نشرت من قبل في مجلة الوطن العربي، قبل أن تصدرها منشورات غادة السمان في بيروت سنة ١٩٩٥. يقع الكتاب في ١٩٢ صفحة، وفي جزئين: الأول يتناول الشرق الأقصى ويقع في ٧٢ صفحة (وهو مدار هذا البحث)، والثاني وقفته على أمريكا.

ونستهلّ بالعنوان:«شهوة الأجنحة» وهو تركيب إضافي يحمل مفردتين، تحتويان معنى ودلالة كثيرة، والعنوان مفتاح للأبواب المجهولة، حيث يدرك المتلقي عند قراءة العنوان مفاهيم النص إلى حد ما، ويرغب في قرائته. إنه استعارة مكنية تخييلية (تشخيص): فالأجنحة لاتنزَع ولاتميل إلا إلى الطيران والتحليق في الآفاق، والتحليق عند السمان إنما يتمثل في الرحلة. وقد أهدت كتابها هذا إلى ابن بطوطة والسندباد وبقية أجدادها الحقيقيين والأسطوريين، ثم تُظهر –كالعادة- انفتاحَها على المؤثرات الأجنبية، وتزوّد القارئ ببعض الأسماء اللامعة في الفلسفة والأدب العالمي الحديث، وتستشهد بآرائهم وتتبناها، منها مثلا قول إدوارد داهلبرغ:«... لماذا نرحل؟ فقط لنتوهم أن بوسعنا الذهاب إلى مكان آخر»، وقول ديكارت:«الرحيل يشبه الحوار مع رجال من عصور أخرى»، وقول بدفورد:«جزء كبير من الرحيل هو في حقيقته تحدي الأنا للعالم الخارجي»، وقول ستيفنسون: «أرحل من أجل متعة أن أرحل». (السمان، ١٩٩٥: ٥)

والمتأمل في مقالات هذا الجزء يجد أنها كتبت في الثمانينات والتسعينات، أي بعد الحرب الأهلية اللبنانية، وبعد أن تعاظم ضجرها وانزعجت بالحرب وويلاتها، فآثرت السفر إلى شرق العالم. ويشير الدكتور عبدالرحمن بدوي إلى الاغتراب الروحي الذي قد ينتاب الأدباء والفنانين ويقول:«حالة وجدانية عنيفة يشعر بها الأديب أو الفنان فيها بحاجة ملحة إلى الفرار من البيئة التي يعيش فيها إلى بيئة أخرى جديدة، وجو مغاير مخالف، يحيا ما فيهما من حياة، ويحس بما يختلج فيها من مشاعر وإحساس». (فهيم، ١٩٨٩: ١٥١). وقد تبلورت هذه الظاهرة وشاعت بين الأدباء والشعراء والفلاسفة على مرّ العصور ولا شك أن السمان ذاتها من جملتهم. تقول السمان: «لقد نجوتُ من الموت في الحرب التي لم تنتهِ بعد، وها أنا هاربة في إجازة أحتفي خلالها بالحياة». (م.ن: ٧) واعترفت بأنها حاولت أن تهرب من بيروت هربا من كل ما هو عربي: «قلت لنفسي: لن أجد جريدة عربية في بانكوك كما في باريس، ولن أسمع صوتا عربيا فى الفليبين كما في شوارع روما، ولن ألتقي برفاقي في الصحافة في الصين، كما يحدث لي في شوارع لندن... ولن أسمع خبرا ما ينغرس في جرحي كالسكين ويوقظه». (المصدر نفسه: ٧) وكالعادة، هناك أيضا رغبة السمان المتواصلة في المغامرة، وفي معرفة المجهول كما يدل على ذلك عنوان المقال الأول:«شهوة المجهول في الشرق الأقصى». وإذا صحّ أنّ السمان قررت السفر للهرب من كل ما هو عربي فالأصوب أنها قد أخفقت في نسيان وطنها

وأوجاعه. تقول السمان:«أي هربٍ ما دامت الأشياءُ تَسكُننا وما دُمنا حين نَرحَلُ هربا منها نجد أنفسنا وحيدين معها وجهاً لوجه!». (المصدر نفسه: ١٠) وتقول:«لأنني لا أستطيع أن أعيش حقاً بدونكم ولا أعرف السبيل إلى إخراجكم من دورتي الدموية» (المصدر نفسه: ١١)، ولأن الرحيل«أسوأ طريقة للابتعاد»(م.ن: ١٠)، ولأن «حياتي السرية معكم تستعصي على الهجر والطلاق والإجازة... وها أنا أعلن اعترافي بفشل إجازتي». (المصدر نفسه: ١١)

ومن المسلم به أن الالتزام بالموضوعية، والحياد في تصوير الآخر صعب للغاية إن لم يكن مستحيلا. ولكن السمان تعدنا بأن تحاول قدر الإمكان عدم الجري وراء الأهواء والتحيز، وتلفت انتباهنا إلى قضية أساسية في الدراسات الصورولوجية وهي اختلاف الناظرين البيّن في الصور التي يقدمونها عن المنظور إليه الواحد، تبعا لظروفهم وأهوائهم ولاختلاف مراياهم عن بعض. تقول السمان وهي تتوجه نحو بانكوك:«لا يوجد شيء اسمه بانكوك حقا، أعني بانكوكَ واحدةً لكل الناس. إنني أحدّثكم عن ارتسام بانكوك في مرآة روحي، فإذا ذهبتم و وجدتم مدينة أخرى لا تلوموني، فهذا معناه أن مرآتكم مختلفة عن مرآتي، وموجة بثّي الروحية شيء آخر، وما يبهرني لا يستحق منكم رفع رأسكم عن جوزة هند تلتهمونها! لا توجد حقا لندن واحدة مثلا، بل ملايين اللندنات.كل مدينة هي ملايين المدن، بعدد الناس الذين زاروها... مع المدن لا حياد، والموضوعية أكذوبة، ولن نبدأ رحلتنا معا بكذبة! ويميل الناس أحيانا إلى تجميل صورة المدن التى شاهدوها ما داموا قد تكبّدوا نفقاتِ الانتقال إليها وعناءَه تجنبا للشماتة أو للشفقة على الذات! ويَحدُث العكس أحيانا حتى إننا نميل إلى تعظيم مساوئ مدينة ما انتقاما منها بعدما خاب أملنا فيها وأنفقنا نقودنا هدرا. وأعِدُكم بأن أحاول قدرَ الإمكان عدمَ السقوط في أحد هذين الفَخّين». (المصدر نفسه: ٢٧)

٢-٢.بانكوك وشدة حَرّها

وبهذه الملاحظة العلمية ترافق السمان في رحلتها إلى بانكوك والسمان تشعر منذ اللحظات الأولى أنها تدخل عالما آخر وتُسائل عن الأسباب الكامنة وراء هذا الإحساس: «هل هي الوجوه ذاتُ العيون المشدودة إلى أعلى، أم المناخ بأكمله؟... ولكن أين المضيفات الباسمات اللواتي نراهنّ في صور الإعلانات؟». (المصدر نفسه: ٧) ولا شك في أنها كانت متأثرة في ذلك بما سبق أن قرأته أو سمعت به عن غرابة الشرق الأقصى. وأول مفاجأة بالنسبة لها تَحدُث في الطائرة بوساطة جارها في المقعد: «عجوز صيني يُشبه الشجرةَ وفي فمه سيجارة مُطفَأة... وفوجئتُ بأن ما يضعه في فمه هو عودُ شجرةٍ جافّ». (المصدر نفسه: ٧-٨) ومن هنا تتنبأ بأن إجازتها ستكون «إجازة نضرة في عالم من المفاجآت». (المصدر نفسه: ٨)

وما إن حطّت الطائرةُ بها في مطار «دون موانج» في بانكوك حتى شعرت بأنها في«فُرن شديد الحرارة... و«الفرن» شديد الازدحام بالغرباء أمثالي، والحرّ يسيل من الوجوه والثياب والأصوات المختنقة». (المصدر نفسه: ١٢) ثم تلوم نفسها وتندم قليلا لأنها طارت حوالي ٧٠٠٠ كيلومتر كي تهبط في فرن تايلاندي اسمه بانكوك، دون أن تدري أن «بانكوك هي أجمل مدينة في الشرق الأقصى، وأغرب مدينة شاهدتها في حياتها حتى الآن». (المصدر نفسه: ١٢) فبانكوك تَسحَرُها وتستقطبها بجمالها الأخاذ وغرابتها، وتُضايقها بشدة حرارتها. إن «درجة الحرارة في أبرد يوم في السنة تهبط هنا إلى ٣١ درجة مئوية... ودرجة الحرارة القُصوى هنا هي ٣٦ درجة مئوية! أي إن درجة الحرارة في الفصول كلها تكاد تكون متساوية... أما الفصول كما نعرفها نحن، فغير موجودة... لديهم ثلاثة فصول هي: فصل الحرّ، وفصل المطر والفصل المعتدل». (المصدر نفسه: ١٣)

٢-٣. مفهوم الابتسامة عند أهل تايلاند

وترى أنّ مساحة تايلاند «تعادل مساحة فرنسا وتسكنها ٣٥ مليون «ابتسامة». أما بانكوك العاصمة فتسكُنها ٤ ملايين ابتسامة. والابتسامة نصف الحزينة التى تغطّي الوجوه تدلّ على التهذيب واللطف، أكثر مما تُعلن فرحاً ما (رغم أكاذيب الكرّاسات السياحية!). الابتسامة لدى هذا الشعب الآسيوي العريق تعبير عن التواضع والرقة والخشية في التعامل مع القَدَر والآخرين. ومعنى الابتسامة الآسيوية يختلف تماما عن الابتسامة الأوروبية، حيث الابتسامة عَتَبَةٌ للضحك». (المصدر نفسه: ١٣-١٤) مع هذا تحذّرنا السمان من الركون إلى هذه الابتسامة: «في بانكوك يسيل من الناس مناخ الرقة لكنها رقّة متوحّشة غامضة كقوة طبيعية مجهولة تشعر أنها يمكن أن تنقلب في أية لحظة إلى عنف بالغ». (المصدر نفسه: ١٦)

٢-٤. بانكوك بين الغرابة والتحديث والأصالة

بانكوك مدينة غريبة ومختلفة تماما عن سائر المدن: «كل شيء هنا غريب ومختلف عما ألفناه في بلادنا... الأشجار، البيوت، المعابد، الغيوم، شكل الفواكه وطعمها، الثمار...حتى السماء لونها مختلف. فالسماء هنا احتفالٌ باللون الرمادي... ولم أرها مرة واحدة زرقاءَ (بمفهوم سكان البحر الأبيض المتوسط للزرقة)». (المصدر نفسه: ١٢-١٣)

والأغرب في بانكوك بيوتها ومعابدها وقصورها السحرية التي تجمع بين التقليد والتحديث. تصفها السمان بقلمها الرائع والزاخر بالعناصر الأدبية، وبدقة الملاحظة والتقصي في تسجيل المشاهدات، وتصدر عن عاطفة جياشة وقوية نحو ما تصف وتصور، وهذه العاطفة هنا مبعثها الإعجاب والدهشة والحب.تقول السمان:«بانكوك مدينة مسحورة طالعة من قلب الأساطير، كأنها ولدت في مخيلة شاعر محموم، فكتبتها فوق صفحة الغابة الإستوائية قصيدةً من شلّالات الذهب والحرير والعاج والدانتيل الحجري، والجاد فاحم الخضرة، والفُلّ الإستوائي والبامبو والبخور والنخيل والأناناس والأفيال والقوارب والأفاعي و... بانكوك غابة استوائية عذراء يجري فيها نهر من العسل- في لونه- هو نهر «تشاوفيا»، وقد تناثرت بين أشجارها بيوت مذهلة بفنها المعماري العجيب، و ٣٥ ألف معبد آهلة بالغرائب وحوالي ٣٠٠٠ باجودا (الباجودا بناء غريب الشكل يشبه هرما أسطوانيا). القصور والمعابد تتميز بقرميد متعدد الألوان والطبقات، كأن جنّية أحبت أن تلعب بالبيوت الغريبة التصميم لتزيدها غرابةً، فأدخلت بيتا وسط آخر أكثر اتساعا». (المصدر نفسه: ١٤)

ثم تفيدنا بأن تماثيل الكلاب والأسود والأفاعي والعفاريت وكذلك الجانّ والشياطين والوحوش الأسطورية نصف البشرية والحيوانات المجنّحة في قصورهم هي للحراسة! وأن تماثيل الأفاعي رمز تايلاند، والفيل رمز للسعادة عندهم ربما لسماكة جلده ثم تكتمل غرابتها حين ترى هناك فنادق فخمة أوروبية الطراز، وأبنية حديثة شاهقة وجامعات عدة (المصدر نفسه:١٤-١٥) ولكن «أجمل ما فيها «السوق العائمة» في منطقة «كلونغ» أي القنوات. وبانكوك تُلقَّب أحيانا ب«بندقية الشرق الأقصى»... ولكن الفن الأرستقراطي في مدينة البندقية يحلّ محله هنا مشهد بدائي مدهش الفرادة والمذاق بعفويته». (المصدر نفسه: ٢٥) وهناك ترى السمان مراكب متعددة تكون بيتا أحيانا أو بمثابة تاكسي نهري أو حانوتٍ للبيع والشراء وبعضها محمَّلة بالفواكه الاستوائية. (المصدر نفسه: ٢٥) وتكتشف بدقة ملاحظتها وذكائها الوافر، السرَّ وراء غرابة بانكوك: إنها «قناع يَفرح له السوّاح ويضمن بقاء الشعب واقعا في شبكة عالم شبه سحريّ، مخدرا بأوهام دينية وثنية وببقية معتقداته المروّعة عن الأرواح وغيرها». (المصدر نفسه: ٢٢) ومن الأشياء الغريبة بالنسبة لها أيضا نقود التايلانديين التي رسم عليها إنسان مجنّح، ورسوم أسماك

وأخطبوط، ولا يوجد عليها رقم لاتيني، بحيث يَعجز المرء عن معرفة قيمة العملة المعدنية إلا إذا كان قادرا على قراءة الأرقام باللغة التايلاندية! (المصدر نفسه، ۲۲)

۲-۵. التقاليد والأعياد

وتسلط الضوء على بعض تقاليدهم، منها أنهم يَخلعون حذاءهم- كالعرب- قبل الدخول إلى البيوت وفي المعابد وبعض الملاهي الفولكولورية حيث الرقص الشعبي الأصيل، وهناك أيضا رقصهم الفولكلوري العذب والبعيد عن الابتذال والإيحاءات الجنسية. والسمان تنبهنا بأن مقابل هذا الرقص الفولكلوري نجد أماكن للرقص المثير والمرعب وتُستعرض فيها راقصات أفعوانيات يمارسن صلات جنسية مع الأفاعي، مما يُخيف المتفرّج أكثر مما يُثيره! وهناك أيضا رقصة «لاكون» التي تشبه «باليه» وهي تبعد عن هزّ البطن عند العربية، إذ يتحرك الجذع بأكمله كشجرة غضّة في الريح. (المصدر نفسه: ۱۵-۱۷) وتلخّص السمان سمات هذه الرقصات الشعبية في عبارة جامعة بقولها: «الحب والكراهية، الكآبة والأحلام المشرقة، الحنان والخيبة، العنف والذهول، هذه كلها نجدها في رقصهم الشعبي». (المصدر نفسه: ۱۸)

وعن مشهد محرقة الجُثَث في تايلاند تقول: «في تايلاند لا يَدفِنون موتاهم، وإنما يحرقونهم، ورماد الموتى يَلقَى معاملة خاصة من بوذا إذا كان الفقيد ثرياً وينتظر رماده برنامج حافل قبل أن يُنثر فوق الأنهار والجبال. أما الفقير فينثرون رماده فوق تلال النسيان بلا طقوس، إلا إذا استدان و دفع! رماد الغنيّ يوضع في عُلَب خاصة توجد في قاعدة تماثيل بوذا. ويحفظ هناك زمناً يطول أو يقصر وفقاً لثروته. ولكل تمثال من هذه التماثيل تسعيرةٌ خاصة، ولكل عُلبة إيجارها.. وهكذا شيئا فشيئا تتضح الصورة الاستهلاكية البشعة المختبئة خلف قناع الغرابة. تماثيل بوذا المنتشرة في المعابد (۳۵ ألف معبد في بانكوك وحدها) هي بمثابة سلسلة تجارية كثيرة الفروع لـ(سوبرماركت) الموت». (المصدر نفسه: ۲۲) وتخبرنا السمان أن «خلف هذا المظهر الديني الأسطوري هنالك تعاونية لدفن الأموات ومافيا لبيع صُكوك الغفران، وهذه التماثيل الذهبية والمعتقدات الغريبة والأماكن الخرافية الأجواء، صارت اليوم تخدم وظيفة استهلاكية في مجتمع بدائيّ الطقوس». (المصدر نفسه)

والحقيقة أن معظم المشاهد التي تراها الكاتبة هناك تفجّر في أعماقها حزنا، وهذا الحزن إما أن يكون مبعثه الضعف والتخلّف العربي الراهن، وانحسار مجد العرب المسلمين، وإما أن يكون مناطه التخلّف الفكري للإنسان في معناه العام ودور الحكومات في ترسيخ هذا التخلّف واستغلاله لمصلحتها. تقول السمان مثلا: «أتذكّر جدي مصعب بن الحارث الذي وصل حتى الصين في الجاهلية، وسواه من أجدادي قارعي أبواب الصين في الإسلام، وأغصّ على حالنا هذه الأيام». (المصدر نفسه: ۱۶) ومرة أخرى نلاحظ السمان تعلّق بذكائها ودقة ملاحظتها على هذه الظواهر المؤسفة، الناتجة عن التخلف الفكري، وتربط بين حضور الأجنبي المهيمن على الحكم في تايلاند ودعمه المعنوي لهذه الممارسات الوثنية والغيبيات والخرافات لتحقيق مصالحه المباشرة. (المصدر نفسه) وعن أعيادهم تحدّثنا بأن الدولة تريد تخدير الناس وتسليتهم بالأساطير المزيفة والخرافات، وتعتقد بأن الأعياد مكرّسة لمتابعة برنامج التخدير؛ فالمطلوب هو أن يقضي الناس أوقاتهم إما في التخدّر بوثنيتهم وإما في الاحتفال بالأعياد! (المصدر نفسه: ۲۲-۲۳)

٢-٦. الطعام والشراب

لا شك أن للطعام أهمية تتعدى كونه وسيلة لتغذية الجسم بغية الحياة، فـ«الطعام يرتبط أيضا بالبيئة، والاقتصاد، وبالدين والمعتقدات الشعبية، وربما بكافة مظاهر الحياة الإنسانية، المادية والفكرية. وعلى هذا الأساس يشكل الطعام مركبا حضاريا في الفكر الأنثروبولوجي، كما أن طهيه وآداب تقديمه وتناوله ما هي إلا مظاهر سلوكية فريدة اختص بها الإنسان». (فهيم، ١٩٨٩: ١٢٩)

وعن الطعام التايلندي تقول: إنه «شهيّ المنظر ولكن حذار من أن تصرخ متوجعا من البَهارات الحرّيفة (الفلفل، الشَطّة) ومن الأفضل لك أن تأكل ما تعرفه حتى ولو كان حرّيفا، بدلا من التهام الغامض كنخاعات القرود و أمعاء الثيران مثلا!». (المصدر نفسه: ١٧) وفي فناء أحد المعابد ترى سوقا «لبيع الفواكه الاستوائية والثمار واللحوم المقددة للسلاطعين والأفاعي وأسماك القرش والجراذين والنمل وغيرها». (المصدر نفسه: ٢٠) وتحدثنا أيضا عن بيعهم لـ ٢٠ نوعا من الموز وفاكهة تُدعَى «السومو» (تشبه الجريب فروت) وأخرى تدعى «نجور» وتشبه الفريز و«اللاموت» البنّية بطعم التين و«دوريان» ذات الأشواك، إلى جانب المانغو والأناناس كما تشير إلى مزارع الرز وغابات جوز الهند والبابايا والأناناس والمانغو والماندارين. (المصدر نفسه: ٢٦) وعن الأشربة المفضلة عندهم تشير إلى الكوكا كولا وماء جوز الهند، إلى جانب شرب بعض الفقراء منهم للمياه الملوثة أو لماء المطر. (المصدر نفسه: ٢٥)

٢-٧. الفقر والدين البوذي

وتتطرق السمان إلى مسألة الفقر المستشري في بانكوك وذلك حينما يلتفّ حولها سرب من الأطفال يقدّمون رقصة الفقر، أو حينما ترى تماثيل البوذا المصوغة من الذهب الخالص، في حين أن الكَهَنة والناس يعانون من الجوع والفقر. تقول السمان: «خمسُ سكّان هذا البلد ينامون بلا عَشاء والوثَن من ذهب وماس». (المصدر نفسه: ١٩) وتقول:«بوذا ثري وكهنته فقراء والناس جياع.. الكهنة يتسولون طعامهم كل يوم من الناس الأكثر فقرا منهم، وبوذا يرفل في حلله الذهبية، أو المنحوتة من أحجار كريمة... فالكهنة هنا صعاليك حقيقيون، غارقون في الصمت والفقر... ١٣ ألف راهب بوذي يقرعون أبواب الناس كل يوم متسولين طعامهم... ولكنهم لا يأخذون نقودا أبدا. وكل تايلاندي من البوذيين يساق إلى الخدمة الدينية الإجبارية لمدة ٣ أشهر في حياته يتسول خلالها طعامه وشرابه، وبعضهم يتابع ذلك بقية حياته. وإذا علمنا أن ٩٤٪ من السكان هم بوذيون، ندرك مدى هذا الرعب التخديري الذي يتعرض له الذكور هناك تحت شعار «الدين»، بينما النساء يعملن باستمرار لإعالة هذا الجيش من العاطلين عن العمل باسم الدين!». (المصدر نفسه: ٢٠-٢١)

وفي ضاحية ساموتبراكرن (ويوجد فيها ٣٠ ألف تمساح) يسترعي انتباهها مشهد الرجال الذين يقدّمون استعراضا عجيبا مع التماسيح ليلتقطوا رزق أطفالهم من داخل أفواه هذه الحيوانات! (المصدر نفسه: ٢٤)

ويُستنتج مما سبق أن الآخر التايلاندي لم يكن في يوم ما ناقماً على الأنا العربية ولا مستعمراً له، فالأنا تحاول الانفتاح عليه في رؤية موضوعية، وفي دهشة وإعجاب بالغ بجمال بلاده وسحره وحضارته العريقة، دون أن تَغُضَّ الطرف عن معالم الفقر والخرافة هناك. وبهذا تُنهي السمان رحلتها إلى العاصمة بانكوك وضواحيها، لتغادرها إلى هونغ كونغ٢ تلك المدينة الإدارية التابعة للصين وذات الحكم الذاتي.

۲-۸. الآخر الصيني

۲-۸-۱. التشويه الأميركي للآخر الصيني

وفي مُستهَلّ حديثها عن مدينة هونغ كونغ التابعة للصين تتحدث عن التفتيش الدقيق الذي يخضع له كل داخل إلى هونغ كونغ، وأنهم «يكرهون دخول الأسلحة إلى هونغ كونغ حتى ولو كانت أثرية». (المصدر نفسه: ۲۸)، ثم تعدّد مجموعة من الصور البشعة التي ترسمها السينما الأمريكية لهذه المدينة: «مدينة العنف والشراسة والقتل والمخدرات والجانحات والمافيا والجنون والدم... المدينة التي لا ينجو منها إلا «جيمس بوند» المغوار» (المصدر نفسه: ۲۸). مشيرة إلى أنها أخذت تتأثر سلفاً بهذه الأوصاف السلبية: «في الفندق ستجد رتيلاء تحت وسادتك، وأخطبوطا في حمامك، وتمساحا تحت سريرك، أما الرجل الذي سيحمل إليك طعامك المسموم، فهو لاعب كاراتيه» (المصدر نفسه: ۲۹). ولكن هذه الأوهام تتبدد بعد لحظات، عندما يعاملها السائق بـ«تهذيب صيني جمّ عمره ۷۰۰۰ سنة»، فتشتم المسلسلات التلفزيونية الأمريكية لهذا التشويه السلبي، ثم توجّه انتقادا لأمريكا التي «تُسقط ذلک على شعوب العالم الثالث، الراكضين خلف رزقهم-حتى ولو كانت اللقمة حصيلة تصوير فيلم في مدينتهم يسيء إليها-». (المصدر نفسه)

۲-۸-۲. هونغ كونغ بين الأصالة والتحديث والسحر

وبعد أن كشفت الدور المغرض للإعلام الأمريكي في التشويه، تحاول أن تصدر في أحكامها عن موضوعية عهدناها عندها دوما. ومن هنا تقول وهي معجبة بالحضارة الصينية العريقة:«هونغ كونغ شهية كالخيانة، مثيرة كالخطيئة، وحزينة كالخطيئة... وهونغ كونغ صينية حتى قاع عظامها...». (المصدر نفسه: ۲۹) وإنها «باهرة الحسن وكأنها عروس بحر غضبت عليها الآلهة وحولتها إلى جزيرة». (المصدر نفسه: ۳۳-۳۴) وتكرر أنها «صينية الروح والتراث رغم أقنعتها» (المصدر نفسه: ۲۹)، رغم أنها مدينة عصرية:«لا تصدّقوا هذه الأبنية الزجاجية الحديثة، لا تصدقوا ناطحاتِ السحاب الفخمة، لا تصدقوا السوق الحديثة المزدحمة بالبضائع والذهب واللؤلؤ... لاتصدقوا الفندق الأوروبي الحديث...ذلك كله قشرة على جسد المدينة...قناع أوروبيّ عصريّ على جلدها جهدت بريطانيا لتكسو به وجه مستعمرتها هذه... هناك ۷۰۰۰ سنة من العراقة الصينية». (المصدر نفسه: ۲۹-۳۰)

يبدو أن السمان كانت قد تأثرت سلفا بما يشاع عن سحر الشرق الرومنسي وغموضه في الأدب الأوربي الحديث وعند أدباء رومنسيين كبار من أمثال ريمون شواب وفيكتور هوجو وغوته وريلكه وأمثالهم ممن كانوا معجبين بجمال الشرق وسحره وأدبه وثقافته. (انظر: ندا، ۱۳۹۳: ۲۷۵ وما بعدها) ثم زارت هذه المنطقة مباشرة وترسخت لديها الفكرة: «هذا العالم الذي لايشبهه مكان في العالم، عالم الشرق الأقصى المختلف حتى جذوره، الثري بمعاييره المختلفة، بسحره الخاص، برموزه، بتوابله، بكهوفه وغاباته وتماسيحه وفيلته وأغانيه وأعشابه وتقاليده.كل ما فيه يطالبك بإيجاد لغة خاصة به». (السمان: ۱۹۹۵: ۴۳)

والسمان غير راغبة في التعريف بالمدن بواسطة الأعداد والأرقام، ومع هذا تُقدّم معلومات جغرافية جد قليلة عن هونغ كونغ، ثم تقول في كلمات رائعة تدخل في صميم الصورولوجيا: «...ماذا يمكن أن تعني لك مساحة هونغ كونغ (إذا كنت لا تنوي شراءها)؟ السحر لا يقاس بالأمتار المربعة. هل تستطيع أن تقيس مساحة الليل؟ ووزن الضوء؟ طول الحزن؟ ارتفاع الدهشة؟ هونغ كونغ ككل المدن، هي أحيانا كبيرة بحجم القلب، وأحيانا صغيرةٌ كحجم الجبل! ذلك يتوقف على لحظة النظر إليها. في

ليل الوحشة تصير المدن شاسعة كالقفر، وفي لحظات التواصل الإنساني والحنان، تصير دافئة ونابضة، وتحتويك كرحم يكتنز طفلا!». (المصدر نفسه: ٣٨)

والسمان معجبة بالحضارة الصينية وثقافتها وآدابها العريقة: «الأدب الصيني هو أكثر الآداب المحفوظة جيدا فى العالم كله، ومخطوطاته القديمة موجودة بأكملها تقريبا. ثم إنهم منذ القرن الثاني عشر الميلادي استخدموا الطباعة وحفظوا بذلك تراثهم من الضياع والتلف». (المصدر نفسه: ٤٣) وتشير إلى الحضارة الصينية التي «تتجلى حتى في الصناعات اليدوية كالحفر على العاج، ناب كامل يحوله الفنان المحلي إلى مدينة ودنيا تزخر بعالم من المنمنمات المدهشة... زجاجات صغيرة منفوخة بالفم. تدهش للأشياء المحفورة عليها كالطيور... ويا لسحر الحفر على الجاد(اليشم)... صناعات يدوية جميلة لا تعرفه سوى الشعوب العتيقة العريقة.إنهم يطعّمون الذهب باللون ويزوجونه إلى رسوم باهرة في حرفة المينا الصينية، كما ينقشون مشاهد بديعة على خشب المقاعد والطاولات و«البارافانات». قطع فنية كاللوحات يُطعّمونها أحيانا بالذهب ملتصقين بالتراث، إذ يرسمون مشاهد صينية تقليدية آتية من الطبيعة في بلادهم... أما الحرفة اليدوية الأكثر شهرة في العالم «الكاراتيه» فلم أشاهدها بعد ولم ألتقِ مع بروس لي، بل مع آلاف يشبهونه». (المصدر نفسه: ٣٠) وهناك أيضا مطاعمهم العائمة، وأكثرها «آية من آيات الفن الصيني في الحفر على الخشب والعاج». (المصدر نفسه: ٣٩) وفي مرفأ «أبردين» للصيد شخص يسكن ٣٠٠ ألف المراكب. إن كل شيء هناك مراكب: المطاعم والملاجىء والتاكسيات والقصور و... بعض بيوت الشاطىء مبنية بشكل قارب رخامي مقدمته تَمخُر الماء، وهذه العادة نجدها في أكثر من مدينة صينية. (المصدر نفسه: ٣٨)

٢-٨-٣. الفقر والبؤس

ولاتصدّق السمان كلمات دليلتها «ليندا» عن انتشار الثراء والرفاهية في الصين، واسترسالها في وصف محاسن المرافق الاستهلاكية للجزيرة، وإنما تعتبر تلك الكلمات تُصبّ في مصلحة السياحة الصينية. ولذا فإنها إلى جانب اهتمامها بهونغ كونغ تصف لنا شيئا من مشاهد الفقر والبؤس فيها: «تتسلل عينك خلسةً فترى المراكب الصينية العتيقة (جانكس) بأشرعتها الملونة المرقعة... وترى بيوت المهجّرين الآسيويين. هاهي البيوت من تنك، والخيام من إسمنت، وبؤس يذكّر بحزام البؤس الذي كان يحيط ببيروت، حتى غطّاها!...وفي السوق الصينية العتيقة ترى الفقراء، الحُفاة، الحلاق الذي اتخذ من الرصيف دكانا... الباعة الفقراء، والزبائن الأكثر فقرا...». (المصدر نفسه: ٣١) وتقول عن «كاولون» (الجزء الثاني لهونغ كونغ): «تشبه بأسواقها بيروت ماقبل الحرب.. ولكن فورة الازدهار هذه، المحاطة بحزام بؤس من اللاجئين والفقراء، تجعلك تخشى من انفجار ما، وتدرك أسباب التفتيش الدقيق في المطار الذي يخضع له كل داخل إلى هونغ كونغ.. إنهم ببساطة يخشون شيئا ما». (المصدر نفسه: ٣٤)

٢-٨-٤. الطعام والشراب

ومما يُدهش السمانَ هناك «وجبتهم المحلية الشهيرة «ديم سوم» وأن الشوكة والسكين من الكلمات المنقرضة هنا، والأكل يتم بالعصي». (المصدر نفسه: ٣٢) وهناك أيضا «حساء القردة»، مما أثار اشمئزاز الآكلين. ومن الأطعمة والأشربة المفضّلة عند الصينيين «حساء النمل ولحم القرود والكلاب والأخطبوط وسمك القرش والسلاطعين والحراذين والضفادع، تُقدّم في لحظات المبالغة بإكرام الضيوف، أما الحلوى فمن الجراد والحشرات بالسكر. في الصين معجزة صغيرة اسمها (شاي الياسمين)». (المصدر

نفسه) وفي الصين نبتة غريبة ثمنها ۳ آلاف دولار تقريبا، يسمونها «عشبة الحب» أو عشبة «رجوع الشيخ إلى صباه» وثمة أيضا أعشاب«طول العمر». (المصدر نفسه: ۳۳)

۲-۸-۵. الأوهام والخرافات والأساطير

وعندها أن أهم الصناعتين في الصين وأقدمها، الحكم والأساطير، كما تشير إلى الأوهام والخرافات والاعتقادات السائرة بين الصينيين بقولها: «يتوهم الصينيون أن الطير يجلب لصاحبه القوة والسلطة والسعادة، كما يتوهمون أن لحياة المرء وأقداره صلة ببرجه وسنة تولده. وهكذا فلديهم سنة الخنزير وسنة البقر والنمر والتنّين والأفعى والقرد والحصان والديك والكلب والأرنب». (المصدر نفسه: ٤٠-٤١)

۲-۸-٦. لغة الإغراء المستوردة

وفي الشرق الأقصى كل شيء شرقي حتى قاع عظامه، اللهم إلا «لغة الإغراء والدعايات»: «كل شيء هنا في الشرق الأقصى شرقي، ما عدا «لغة الإغراء» فهي مستوردة من الغرب. (المصدر نفسه: ٤٣) وتثور السمان وهي ترى أهل الشرق الأقصى يستوردون مفردات غربية لوصف مدنهم: فينيسيا الشرق (أي مدينة بانكوك)؛ باريس الشرق (=شانغهای)؛ مونتي كارلو الشرق (=جزيرة ماكاو)؛ غابة بولونيا الشرق (=غابة في نانكينغ)؛ شانزليزيه الشرق (= شارع في بكين)؛ و...، وتنتقدهم لأنهم يحاولون «إيجاد مفردات غربية لهذا العالم الذي لايشبهه مكان في العالم، عالم الشرق الأقصى المختلف حتى جذوره، الثري بمعاييره المختلفة، بسحره الخاص، برموزه، بتوابله، بكهوفه وغاباته و...كل ما فيه يطالبك بإيجاد لغة خاصة به تنبع من داخله، بدلا من استيراد مفردات العالم الغربي لوصفه. لماذا يتوهمون أنهم بتشبيهه للغرب يقرّبونه إلى الأذهان؟! إنهم ببساطة يبعدونه تماما عن مرمى الفهم». (المصدر نفسه: ٤٣) وفي نهاية المطاف تنقل على لسان الدليل السياحي:«المقامرة ممنوعة في الصين وهونغ كونغ ونيوتيريتوري، ومسموحة فقط في جزيرة ماكاو(المكرسة للقمار)... وهم يقامرون في كازينوهات القمار العائمة (بواخير كبيرة فخمة) وفي صالات تجمع الفن الصيني العريق إلى الفن الأوروبي البرتغالي في زواج موفق فنيا...». (المصدر نفسه: ٤٤) وقبل أن تغادر الصين نهائيا سيأخذها الدليل إلى جزيرة «لانتاو» وتعتبر السمان «السياحة الليلية هناک تجربة استثنائية». (المصدر نفسه: ٤٥) وبهذا تنتهي رحلة السمان في الصين، فقد بدأتها بخوفٍ منبثق عن الصور البشعة التي رسمتها السينما الأميركية لهونغ كونغ، ثم تبدّد خوفها بسرعة، وعادت إلى الموضوعية والحياد في رسم معالم العاصمة؛ رافقتها في ذلك إحساسها بالدهشة والغرابة، والإعجاب كما سبق.

۲-۹. العاصمة مانيلا

۲-۹-۱. مانيلا والتشويه الأمريكي السلبي

في الطائرة بين هونغ كونغ ومانيلا عاصمة الفليبين تظل مرئيات الصين المدهِشةُ تتراكض داخل رأس السمان، وتستدعي بعضها بعضا حتى تحطّ بها الطائرةُ في مطار مانيلا. وتستقبلها الشمس بحرارتها الشرسة. الشمس هنا حرّها «لايوصف. حتى ميزان الحرارة الذي أحمله معي باستمرار عاجز عن وصفه». (المصدر نفسه: ٥٠) وفجأة ترى السمان شابّا يحوم حولها ويلتقط لها الصور خلسةً، ومن هنا تُوجِس في نفسها خيفةً وتستيقظ في رأسها من جديد تلك الصور البشعة التي تعكسها الأفلام الأمريكية لهذه الأصقاع النائية. لكنها تفهم بعد دقائق أنه «مجرد جائع آخر يركض وراء لقمته، وككل جائع يحتال للحصول

عليها». (المصدر نفسه: ۴۶) فلا تملك إلا أن تثور وتنتقد السينما الأمريكية والغربية التي «لا تقدّم لنا-ولو على سبيل التنويع- الوجه الحقيقي لهذه الشعوب الفقيرة، والغنية بعالمها الروحي. لماذا ترسم أبناءها حفنةً من الرعاع والمجرمين- كما تفعل بالعرب؟!». (المصدر نفسه)

۲-۹-۲. الفقر والبؤس السائد

وأول مشهد يلفت انتباه السمان في مانيلا، مشهد البؤس والفقر. تقول السمان: «الفيليبين عدد سكانها ۴۷ مليون فم، وأكثرها جائع». (المصدر نفسه: ۵۱) وتقول: «نتسكّع في شوارع مانيلا، حملونا إلى القلعة، إلى الكنائس، إلى القصور، إلى المتاحف، لكننا لم نبصر سوى الفقر، الفقر المدقع، ولم نبصر سوى محاولات التحايل لكسب الرزق يقوم بها حتى الأطفال... وشعرت ببؤس هائل. إنهم يتوهمون أننا لا نفهم ما يقولون. كأننا سكان كوكب آخر». (المصدر نفسه) وعدوى هذا الفقر قد سرى في حدائق الحيوان أيضا: «مخلوقاتها هنا في مانيلا تبدو كحراسها، يجمع الفقر بينهم ويوحّدهم، كأن ذل السجن لايكفي تلك الحيوانات المسكينة، فركبها الفقر أيضا!». (المصدر نفسه: ۵۰)

وعبثاً تحاول السمان أن تنسى المشاهد التعيسة التي رأتها في الصباح، رغم ما يتوفر لها من ملذات مادية في الفندق: «ها أنت جالس فی روف الفندق. أمامك مزيج استوائي شهيّ لعصير فاكهتهم، ومقصف يحوي ما لذّ وطاب من الأعشاب الحرّيفة، وفاكهة البحر من أصداف وكركند وأسماك وحلزون وقريدس. في وسط المكان سرب من الراقصات بارعات الجمال، بوجوههن الفليبينية المميزة، وقاماتهن الفارعة الأوروبية بعد امتزاج الفليبينيين بالأوروبيين الإسبان على طول قرون من حكمهم لهذه البلاد» (المصدر نفسه) ثم تخاطب نفسها في نبرة تشي بالتحذير والتكهن: «خبراتک كمواطن «ملدوغ» تؤكد لک هذا التعايش بين النار والبارود لا يمكن أن يدوم طويلا». (المصدر نفسه: ۴۷)

۲-۹-۳. معلومات عن الفيليبين وطقوس أهلها

والسمان تعود إلى تزويد قارئها- الذي يحب الأرقام والمساحات- ببعض المعلومات: الفيليبين «تتألف من ۷۱۰۷ جزر... و۴۰۰۰ جزيرة منها غير مكتشفة ولم تطأها قدم. فيا لها من جنة لعشاق المغامرة المائية، وهي التي تضم حوالي ۲۰ ألف فصيلة من أحلى أصداف العالم... عدد سكانها ۴۷ مليون فم، وأكثرها جائع. معظمهم جاء من ماليزيا وسومطرة وبورنيو ومنغوليا والجزيرة العربية إذ تضمّ حوالي ۴ ملايين مسلم. ۸۳٪ من سكانها يدينون بالمسيحية(كاثوليک)». (المصدر نفسه: ۵۰-۵۱) وتذكر أن مسلمي الفليبين «يقطن معظمهم فی بلدة ساحرة اسمها «زامبوانجا». يعملون في صيد اللؤلؤ والأصداف والسمک والإسفنج ويمهرون في بعض الصناعات اليدوية». (المصدر نفسه: ۵۱)

وتحدثنا عن بعض الطقوس والتقاليد في مانيلا، منها رقصة «البامبو» المحلية وتصفها وتقارنهابالرقص العربي، وترى أنها «رقص بديع خطر مغامر لا ابتذال فيه ولا «دلع» ولا هزّ بطن». (المصدر نفسه: ۴۷) وتشير إلى استقبال الفليبينيين لأول سائح أوروبي وصل إلى هذا البلاد عام ۱۵۲۱ واستقبلته قبيلة «لابو لابو» وذبحوه خلال الاحتفال ورفاقه الأربعين، لكن هذه البلاد تغير سلوكها اليوم، فهي « لم تعد تعامل سوّاحها اليوم هكذا. إنها تدلّلهم وتُفسدهم، وتقدّم لهم موسيقاها ورقصاتها وأزهارها وفاكهتها وأصدافها وآثارها التاريخية، وإذا لم يرضوا بذلک قدّمت لهم بعض بناتها ک«مرافقات» للسوّاح. ولديهم عدة صحف

تصدر بالإنكليزية وتحمل إعلانات بهذا المعنى». (المصدر نفسه: ۵۱) وهنالک أيضا لعبة قتال الديكة والرجل يفاخر بأنه يحب ديكه أكثر من حبه لزوجته! (المصدر نفسه: ۵۴)

۲-۹-۴. جمال مانيلا وروعتها

ولاتستطيع السمان أن تخفي دهشتها البالغة بما عاينته في مانيلا وعندها أن «الزهرة هنا أجمل منها في أي مكان آخر، وعمرها أقصر منه في أي مكان آخر. عمر الزهرة هنا ليلة واحدة، كأنها برقية موجزة من الجمال... هنا جنة الأصداف والبامبو والبراكين والجسور الخرافية المصنوعة من الحبال المجدولة مع القصب، الممدودة بين جبل وآخر فوق وديان سحيقة مرعبة الجمال والخضرة. هنا جنة البحيرات والأنهار والشلالات والغابات الاستوائية وجوز الهند والينابيع ومزارع الرز المبنية على «جروف» منذ حوالي ۳۰۰۰ سنة». (المصدر نفسه: ۴۸)

وتشدد مرة أخرى على أن «كل شيء في الشرق الأقصى مختلف، حتى النمل. جمال الشواطئ هنا خارق، بدائي، مظلاته من القش والبامبو كتلك التي نراها في مشاهد أكلة لحوم البشر في السينما! ولكن الشمس هي التي تشوينا هنا». (المصدر نفسه: ۵۰).ثم إن «مراكبهم جميلة حقا... وذات نقوش عربية زاهية الألوان، كأنها خارجة من إحدى حكايا ألف ليلة وليلة». (المصدر نفسه: ۵۱) حتى علَم الفليبين هو أيضا غريب: هو«ككل شيء هنا غريب ويتأثر بالطقس. فهو الآن أزرق وأحمر، الأزرق في الأعلى، والأحمر تحته ولكن حين ترتفع «درجة الحرارة السياسية» وتكون البلاد في حالة الحرب يبدّلون موضع الألوان في العلم». (المصدر نفسه: ۵۴).

۲-۹-۵. المِهن والأطعمة والأشربة

أهل الفيليبين يهتمون بصيد الأسماك والأصداف والاسفنج وكركند وحلزون وقريدس (المصدر نفسه: ۵۱) ويختلف طعامهم عن الطريقة المألوفة عند السمان. تقول السمان إنهم أكرموها وأطعموها السمك النيىء وهم بذلك يختلفون عن اللبنانيين، الذين يأكلون لحم «الخروف» نيئا ويستسيغونه! ولاتنكر السمان عليهم هذا، بل تدعو لاحترام الاختلاف والتنوع برحابة بدلاً من أن نتوهم أنفسنا مقياساً للعالم. (المصدر نفسه: ۵۲) وثمة أيضا مثلّج بشكل «بوظة»! طعامهم المحلي يمتاز بطبخ الفاكهة مع اللحوم، والحلو مع الحامض، والسكر مع الملح والبهارات الحريفة، وتذكر أنها من السوّاح الذين يعيشون أياما في فليبين ولا يذوقون سوى «الهامبرغر» الكريه! (المصدر نفسه: ۵۲-۵۳)

۲-۹-۶. الوجه الحقيقي للفليبين

ليست السمان من جملة الذين تخدَعُهم القشرة السياحية الزائفة للبلدان والمدن، ولهذا تَنزل إلى شوارع مانيلا وطرقاتها وتتمشّى فيها وحيدة كي ترى الفليبين الحقيقية: «مانيلا الشوارع الحزينة الحارّة التي تفوح منها رائحةُ الشِواء والبَهارات والمياه الآسنة، وتَقبَع أمام أبواب باراتها الفتياتُ الكئيباتُ بحثاً عن نسمة باردة، ودولار! مانيلا التي تُطارد البراكينُ والزلازلُ والحرائقُ والرياحُ جُزُرَها الـ ۷۱۰۷. مانيلا اللزجة الرطوبة، التي تنوء تحت شمسها وجوهٌ مُتخَمةٌ بالخيبة والجوع، تكافح لتقدّم للسائح اللعين حاملِ الدولار ابتسامةً ورقصة، وتحرص على تلميع الواجهة السياحية وذلك كي لا يعي السائحُ النزفَ الإنساني الموجِعَ داخل ديكورات مسرح الازدهار، وصالات السونا والمساج». (المصدر نفسه: ۵۳)

٢-٩-٧. وصف جمال مايامايا

وتزور جزيرة «مايامايا» المنسية قرب شواطئ الفليبين وتصفها في لغة شعرية وبأوصاف رومانسية تدل على إعجابها البالغ بجمال الجزيرة وهدوئها المنقطع النظير. ومن قولها في ذلك: «بوابة الفرح البريء المعافى، وعتبة الضحك للمنفيين إلى دنيا الحزن، مايا مايا لحظة الخروج من زمن الغبار إلى زمن الضوء، ومن لذعة الجمرة إلى حلاوة التمرة! مايا مايا حلم في خاطر شاعر... جزيرة منسية في البحار الاستوائية... جزيرة خرافية الجمال والبراءة.. هناك يصدر الزمان عنك «عفواً عاماً» ويغفر لك أحزانك ولوعاتك...شطآن أسطورية الهدوء.. في مايا مايا يحوم الحزن كالشبح، فيطرده الغروب». (المصدر نفسه: ٥٥-٥٦)

٢-١٠. سنغافورة

٢-١٠-١.سبب التسمية وحالة الطقس

وآخِر مدينة ترحل إليها في رحلتها إلى الشرق الأقصى هي مدينة سنغافورة، الواقعة على مقربة من خط الاستواء، والحرّ فيها من نوع آخر: «السيد الحرّ» يلاحقك في الطريق.. حَرٌّ من نوع لم تألفه.كأنك هبطتَ داخل فوهة بركان». (المصدر نفسه: ٥٩) ثم تروي لنا الوجه في تسمية جزيرة سنغابورة وبنائها بقولها: «حين يَحلُم الأمراء تُبنَى المدنُ تحقيقاً لأحلامهم. فقد حَدث أن حَلَم أميرُ سومطرة بأسد يمشي في جزيرة قرب سواحل ماليزيا، ولها شكل الجوهرة. وهكذا كان، وتمت تسمية هذه الجزيرة الموصوفة في الحلم «سينغا-بورا» أي (مدينة الأسد)». (المصدر نفسه: ٦٠)

٢-١٠-٢. الحضارة الاستهلاكية واختلاط الأجناس واللغات

وتصف المجامع والمخازن التجارية الشاهقة وفيها عشرات الدكاكين والحوانيت، ثم تَنصَحُنا بأن «المساومة واجبة في الشرق الأقصى إذا اشتريتَ شيئا». (المصدر نفسه: ٦١) وفي شارع «أوركارد ستريت» تمرّ بالسمان الوجوه الآسيوية، التي تتحدث بتلك اللغات العجيبة التي تشبه بإيقاعها زعيق طيور استوائية في غابة ويغمرها حس بالوحشة جراء ذلك! (المصدر نفسه: ٦١-٦٢)

وسنغافورة هي «جزيرة الحدائق» ويلقّبونها بالمدينة الخضراء. (المصدر نفسه: ٦٢) وهي مدينة عصرية ومركز خدمات من الطراز الأول:«إذا رفعنا عن سنغافورة قشرة الحدائق والغابات وناطحات السحاب الحديثة، فسنجد أنفسنا أمام الجوهر، أمام مدينة يخطّط لها لتكون مركز خدمات من الطراز الأول، ولكن خدمات لمن؟ ها نحن من جديد أمام آلاف الدكاكين ومختلف البضائع، ويعيش الدولار ودامت هونغ كونغ مثلا أعلى!» (المصدر نفسه: ٦٤) وترى أن «الحضارة الاستهلاكية لم تَنسَ أحداً حتى ولا الكتّاب وعشاق الحياة الحرة والمجهول». (المصدر نفسه: ٦٦) وتقول: «الرفاه السطحي في سنغافورة يخيفك. الأسواق الشبيهة بأسواق لندن وجنيف... تدفع بك للبحث عن أي شيء ثقافي له جذور إنسانية حقيقية». (المصدر نفسه: ٦٤) وفي الختام تُبدي إعجابها بجزيرة سانتوزا لأنها جنة استوائية وبإمكانك الوصول إليها بالمركب أو بالعربة المعلقة في الجو وحوّلوها إلى مكان سياحي يُرضي الأذواق العصرية. وثمة مسابح ومقاصف وجولف وكرة المضرب وتجذيف وعشرات جزر استوائية ذات مياه فيروزية، لكنها لم تغسل عن عينيها بيروت. (المصدر نفسه: ٦٥)

۲-۱۰-۳. الوثنية والتقاليد والتزام القانون

وعن معتقداتهم الباطلة تقول:«في المخازن يبيعونك تماثيل أوثانهم المتعددة.. وتجد بوذا في كل مكان وبكل الأسعار...كل شيء يتم تحويله إلى سلعة في هذه الأصقاع التي تتدرب على ممارسة دور الفندق» (المصدر نفسه: ۶۴) وعن بعض معتقداتهم الخرافية تقول على لسان امرأة: «بحارة (الجانكس) و كل المراكب الصينية العتيقة يؤمنون بأن النساء يجلبن الفأل السّيّيء في البحر» (المصدر نفسه: ۶۶) وعن اعتقادهم بالحظ تقول:«في الشرق الأقصى الغامض يؤمنون حقا بحكايا التنجيم و الأبراج... أبراجهم تختلف تماما عن تلك الأوروبية المألوفة لدينا». (المصدر نفسه: ۷۱) وتقول إنه بإمكانک أن «تجد في سينغافورة الأعياد الدينية الإسلامية بطقوسها المتقشفة، لكنك تجد أيضا تلک الأعياد الوثنية التي يتم تشجيع ازدهارها بحجة السياحة. أعيادهم الوثنية الكثيرة شبيهة بكرنفالات دورية ملونة، طقوسها عجيبة ومناسبتها غريبة (مثل عيد ميلاد رب القرود) وفي عيد رأس السنة الصينية يرتدون الأقنعة، ويمارسون الرقص المجنون في الشوارع ويركض بينهم التنين الملون والأسد والتمساح والتخدير». (المصدر نفسه: ۶۴) وتتحدث عن قصة هذه الرقصات الشعبية في هذه المدينة وتندّد بالعنف الذكوري هناک وفي المجتمعات العربية أيضا: «في سنغافورة وراء كل رقصة أسطورة، رقصة الأسد، رقصة البامبو، رقصة الحب. أتأمل رقصة السيف في سنغافورة، وهي باختصار تمجيد للعنف الذكوري التاريخي، وأنا آتية من مدينة العنف الذكوري الغبيّ... معظم الرقص مكرس لتمجيد الجنس (أو إثارته بأجساد نسائية متلوّية)، أو القوة الذكورية العدوانية عند الرجل». (المصدر نفسه: ۶۵)

وعن اهتمامهم بالنظافة والتزامهم بالقانون تقول: «المدينة نظيفة حقا في حيّها السياحي على الأقل، وكل «مخالفة نظافة» - كأن أرمي ورقة من أوراقي هذه- تدفع مقابلها غرامة باهظة لا تقلّ عن مئة دولار. أما مخالفة المشاة لأنظمة السير، فعقوبتها خمسون دولارا على الأقلّ». (المصدر نفسه: ۶۰) وتقول أيضا: «تحرص سنغافورة على نظافة شوارعها، وتُعزّز ذلک بحملة ضد التدخين. الكتابة على الجدران عقابها فَلَقَة». (المصدر نفسه: ۶۵)

۲-۱۰-۴. الملاحظة الأخيرة للسمان

وفي نهاية المطاف نراها جالسة في مطار سنغافورة، تنتظر غربتها الثانية وموعد إقلاع طائرتها: «ولم ألتقط صورةً تذكاريةً مع كونفوشيوس، ولم ألبس ثوب الميكادو، ولم أعالج «قلقي الوجودي» بالإبر الصينية. ولم أخبّيء في صدري تحت ثوبي الحريري «كوبرا». تسألني إذا كان الشرق قد ألهمني الحكمة؟ الشرق ألهمني الحب. فالحب يتربع على قمة هرم الحكمة!». (المصدر نفسه: ۷۲) ثم تتذكر تلك المناظر المدهشة والطقوس والأعياد الغريبة وتنتقد الذين زاروا من قبل الشرق الأقصى ولكنهم: «لم يروا في نسائه غير «الجيشا» ولم يروا في مغاوره غير صالات المساج والسونا، ولم يلمحوا في ليله غير المخدرات والعنف، ولم يسمعوا في فجره سوى صيحات الكاراتيه، وتوهموا أن «الكونغ فو» هو رقصه الفولكلوري». (المصدر نفسه: ۶۸) ثم ترى أن هذا يعني الوقوع في فخ التعميم: «إن الانطباع بأن جميع نساء الشرق الأقصى من الجيشا المكرسات للحب والجنس، شبيه بانطباع آخر هزليّ، كالقول بأن جميع نساء الشرق الأوسط راقصات!... المرأة في الشرق الأقصى عاملة وجادة كالأكثرية الساحقة من النساء العربيات (باستثناء طبقة معينة محدودة). امرأة الريف عندهم وعندنا كادحة حقيقية. تعمل في الحقل، في البيت؛ تحمل أثقالا على كتفيها وداخل بطنها، وتهرول خلف الرغيف في البراري، وفي شوارع المدن بعيدا عن الواجهة السياحية المزيفة». (المصدر نفسه: ۶۸) ثم تعلن رأيها عن الابتذال: «أما الابتذال المفترض، فليس ظاهرة عامة وإنما هو محصور في

الأماكن الخاصة به كما في أكثر بلدان العالم. ولعل في لندن صالونات للسونا والمساج أكثر مما في بانكوك وهونغ كونغ وسنغافورة. ولكن الإعلام السطحيّ صوّر امرأة الشرق الأقصى ككائن مكرس للجنس، وتضخّم هذا العامل كي يخفي الحقيقة خلف ردف المرأة الآسيوية. والمؤسف أن بعض الأدباء العرب المعروفين الذين سافروا إلى تلك الأصقاع وكتبوا عنها أطالوا الحديث في وصف الجيشا، العنف، الجنس وسقطوا أسرى صنّارة الفخ الإعلامي إياه، وتمّ بذلك إلهاؤهم عن الجوهر، عن الملايين التي تركض خلف اللقمة في عراء العصر، بأقدام ممزقة النعال تحت شمس اللاحرية في بعض أقطارهم، ولهم جذورهم المغروسة في حضارات عريقة». (المصدر نفسه: ٦٨)

٣. النّتيجة

١. الجزء الأول من «شهوة الأجنحة» وقف على رحلة السمان إلى الشرق الأقصى بعد أن تعاظم ضجرها وانزعجت بالحرب وويلاتها، فانتابها ذلك الاغتراب الروحي الذي جعلها تشعر بحاجة ملحّة إلى الهرب إلى بيئة أخرى جديدة وجوّ مغاير. الرحلة إلى الشرق الأقصى تمت للهرب من الواقع الأليم، والسعي نحو المجهول؛ أما الهرب من الواقع فلم يتحقق. إذ إن صورة لبنان ودمشق تطلّ من ثنايا كل سطر، وكل مشهد من المشاهد التي تراها يفجر في أعماقها حزنا أو فرحا يستعصيان على الكبت.

٢. السمان ذات ثقافة واسعة، تزور مختلف البلدان مباشرة، ويبدو أنها تأثرت سلفا وقبل رحلتها إلى الشرق الأقصى بانطباعات أدباء الغرب الرومانسيين عن الشرق الساحر والغامض والخرافي؛ فتجربتها حضورية مباشرة، ومتأثرة في الوقت نفسه بالصور والنصوص السابقة. ثم إن رحلاتها في الشرق الأقصى لم تمتد إلى جميع أقطاره وإنما شملت بانكوك، فهونغ كونغ، ثم مانيلا عاصمة الفليبين، وجزيرتها مايا مايا، ثم سنغافورة. وبذلك يتم نوع من التوازن الانفتاحي عندها بعدما زارت كثيرا من الأقطار الغربية في كتابها الأول وباقي أعمالها.

٣. معظم المشاهد التي تراها السمان في الشرق الأقصى تفجّر في أعماقها حزنا وثورة، وهذا الحزن يرجع إلى الضعف والتخلّف العربي الراهن، وانحسار مجد العرب، وقد يكون مناطه التخلّف الفكري للإنسان في معناه العام، ودور الحكومات في ترسيخ هذا التخلّف واستغلاله لمصلحتها. فالسمة الرئيسة لأدب الرحلات عند السمان بعدها الفكري وعمقه، فضلا عن السمة الوصفية.

٤. الاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة، إضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم، والتحقيق في دياناتهم ونُظُم حكمهم، تضع أمام السمان مجالا طيبا للمقارنة. ولكون الفرد يتشكل عامة في إطار معين من التقاليد والعادات التي ينشأ عليها ويألفها فإن حكمه على الشيء المخالف لها يأتي عادة محمّلاً بقدر كبير من التعسف والتحيز، لكن السمان تَعِدُ قرائها بالالتزام بالموضوعية قدر الإمكان وتتجنب الوقوع في فخّ التعميم والتحيز، لكن مع المدن لا حياد، والموضوعية أكذوبة على حد قولها.

٥. السمان أديبة كبيرة أولا، ثم رحالة ثانيا، تأخذ عناصر لوحاتها الفنية والأدبية من الواقع الأليم أو السارّ ثم تُضفي عليها كثيرا من الألوان والظلال والخيال والفانتازيا حتى تخرج في شكلها الفني والمؤثر. إنها تتجاوز قشرة المشاهد وجلدها إلى لحمتها الإنسانية وتتسلل داخل شرايينها وأوردتها.

٦. إن التفاوت الحضاري بين الكاتب وبين من يكتب عنهم أمرٌ له دوره الخطير في الأحكام التي يطلقها، لكن السمان لا تغزو الشرق الأقصى ومدنه وحضارته العريقة، وإنما تنفتح عليه وتُشيد بتلك الحضارة، وترى أنه لايشبهه مكان في العالم، وتعتبره مختلفا حتى جذوره، ثريّا بمعاييره المختلفة، وبسحره الخاص، وبرموزه وتوابله وغاباته وحيواناته وتقاليده و... إنه عالم عريق قد احتفظ بكثير من حضارته، رغم قناعه الغربي الزائف واللاصق بوجهه، ورغم التشويه الأمريكي السلبي له. والسمان معجبة هي الأخرى بحضارة هذا العالم، ومدهشة بجماله وروعته وسحره؛ ولا غرو! فلفظة الشرق من قوة سحره بحيث يلفت انتباه العالم بأجمعه.

٧. تغزو السمان في الشرق الأقصى مظاهر التخلف الفكري والخرافة والوثنية التي تستغلها الحكومات العميلة للاستعمار، وتستنكر الفقر المادي الشائع ومظاهر الحياة الاستهلاكية، ولغة الإغراء المستوردة عند أهله.

۴. الهوامش

(۱) غادة السمان (۱۹۴۲) من مواليد سوريا، لكن البعض يعتبرها «محسوبة على الأدب العربي في كل من سوريا ولبنان لعطائها الإبداعي عن البيئة اللبنانية». (بدر يوسف، ۲۰۱۱: ۲۶۵-۲۶۶). للسمان مؤلفات كثيرة في مجالات متنوعة وهي تزيد على الثلاثين كتابا. تكتب القصة القصيرة والرواية والشعر وأدب الرحلات والمقالات الأدبية الأسبوعية و... . أعمالها في مجال أدب الرحلات هي: الجسد حقيبة سفر(۱۹۷۹)؛ شهوة الأجنحة (۱۹۹۵)؛ القلب نورس وحيد (۱۹۹۸)؛ رعشة الحرية (۲۰۰۳)؛ امرأة على قوس قزح (۲۰۱۵). وقد حفلت هذه الرحلات بكثير من الرؤى والأحكام والتصورات عن الآخر الأجنبي. زارت السمان العديد من الأقطار الغربية والشرقية في مهمّات صحافية ودراسية، وعندما صدر حكم غيابيّ ضدها في سوريا فضّلت أن تتخذ من لندن وباريس مستقرا لها.تقول السمان:«أرحَلُ، ربما بحثاً عن المجهول، والمدن الغارقة في غِلالات المسافات والتاريخ.. ولأن كل رحيل يقود إلى الوطن ما دام الوطن يَسكُننا». (السمان، ۱۹۹۶: ۴۴) وتقول أيضا: «قد كان للرحيل فيما مضى سحر خاص. سحر المحطات، الوقوف في المحطات، والاستمتاع بتنوع المشاهد الطبيعية والبشرية... أجمل ما في الرحيل هو أن يكون غاية بقدر ما هو وسيلة إلى مدينة معينة». (م.ن: ۴۴) وتقول أيضا:«الرحيل، الأمنية الوحيدة التي لا يستهلكها مجرد تحقيقها». (المصدر نفسه: ۵۰) إن أعمال السمان «أوضح مثال لانفتاح الأدب العربي المعاصر في سورية على المؤثرات الأجنبية، وعلى صفحات مجموعتها «عيناک قدري» يكاد المرء يقرأ معظم الأسماء اللامعة في الأدب العالمي المعاصر، وتمتد هذه الأسماء من شخصيات الميثولوجيا والفلسفة اليونانيتين مثل برميثيوس وسقراط، إلى الفلاسفة الأوربيين مثل ديكارت وكانت، إلى الشعراء الإنكليز مثل ملتون و شلي، إلى مختلف الكتّاب الأوربيين المحدثين. وفي مجموعتها الثانية «ليل الغرباء» (۱۹۶۶) يطّرد هذا الاتجاه». (الخطيب، ۱۹۹۱: ۸۵) ويقول عنها الناقد غالي شكري: «هكذا يتحتم على النقاد أن يروها على حقيقتها، ألا يقعوا في حبائل الخداع أو البدعة التي ننفرد بها ما يسمى بالأدب النسائي. لا علاقة لغادة بما تكتبه أكثرية الأخريات؛ وإنما علاقتها التي يمكن الحديث عنها بالأدب العربي الحديث، بكتابات نجيب محفوظ ويوسف إدريس وحنا مينة وغائب طعمة وفؤاد التكرلي ويوسف الأشقر وغسان كنفاني وغيرهم ممن يستحيل وصف أدبهم بأنه أدب رجالي، بل هو أدب فحسب، هو أدبنا، وجداننا وعقلنا». (شكري، ۱۹۹۰، ۱۰۲)

(۲) هونغ كونغ منطقة إدارية خاصة تابعة للصين، تقع على ساحل الصين الجنوبي وأكثر من ۹۳٪ من سكانها من الصينيين. ظلت مستعمرة بريطانية حتى عام ۱۹۹۷، ثم أعيدت ملكيتها إلى الصين. لكن هذه المدينة تتمتع اليوم باستقلالية عالية ونظام سياسي مختلف وفق مبدأ: «بلد واحد، نظامان مختلفان»، الذي يُكرس للمدينة حكمها الذاتي. (للتفصيل انظر: https://ar.wikipedia.org)

المصادر

الف: الكتب

- **القرآن الكريم**

۱. ابن منظور، جمال الدين ابن مكرم (لاتا)؛ **لسان العرب**، بيروت: دار صادر.

۲. باجو، دانييل هنرى (۱۹۹۷)؛ **الأدب العام والمقارن**، ترجمة غسان السيد، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

۳. بدر يوسف، شوقي (۲۰۱۱)؛ **القصة القصيرة النسوية اللبنانية، أنطولوجيا**، الطبعة الأولى، الاسكندرية: مؤسسة حورس الدولية.

۴. بيشوا،كلود وأندره م. روسو (۲۰۰۱)؛ **الأدب المقارن**، ترجمة أحمد عبدالعزيز، الطبعة الثالثة، القاهرة: الأنجلو المصرية.

۵. حمود، ماجدة (۲۰۰۰)؛ **مقاربات تطبيقية فى الأدب المقارن**، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

٦. الخطيب، حسام (١٩٩١)؛ **سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية**، الطبعة الخامسة، دمشق: الإدارة السياسية.

٧. ساباپارد، نازك (١٩٧٩)؛ **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**، بيروت: مؤسسة نوفل.

٨. السليماني، أحمد ياسين (٢٠٠٩)؛ **التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربى المعاصر**، الطبعة الأولى، دمشق: دار الزمان.

٩. السمان، غادة (١٩٩٦)؛ **الجسد حقيبة سفر**، الطبعة الخامسة، بيروت: غادة السمان.

١٠. .... (١٩٩٥)؛ **شهوة الأجنحة**، الطبعة الأولى، بيروت: غادة السمان.

١١. شحاته، عبدالمنعم (٢٠٠١)؛ **أنا و الآخر، سيكولوجية العلاقات المتبادلة**، دار إيتراك للطباعة و النشر و التوزيع.

١٢. شفيعى كدكنى، محمد رضا (١٣٨٧)؛ **ادوار شعر فارسى**، چاپ پنجم، تهران: سخن.

١٣. شكري، غالي (١٩٩٠)، **غادة السمان بلا أجنحة**، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

١٤. عبدالعزيز، أحمد (٢٠٠٢)؛ **نحو نظرية جديدة للأدب المقارن (استراتيجيات المقارنة)**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

١٥. فهيم، حسين محمد (١٩٨٩)؛ **أدب الرحلات**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.

١٦. مكي، الطاهر أحمد (١٩٨٧)؛ **الأدب المقارن أصوله، تطوره ومناهجه**، القاهرة: دار المعارف.

١٧. ندا، طه (١٣٩٣)؛ **ادبيات تطبيقى**، ترجمهٔ هادى نظرىمنظم، چاچ سوم، تهران: نشر نى.

ب: المجلّات

١٨. عبود، عبدة (٢٠٠٢)؛ «صورة الآخر الغربي في أدب غادة السمان»، **مجلة الموقف الأدبى**، العدد ٣٧٥، صص ٦٤-٧٩.

١٩. نامور مطلق، بهمن (١٣٨٨)؛ «درآمدى بر تصويرشناسى: معرفى يک روش نقد ادبى و هنرى در ادبيات تطبيقى»، **مجلهٔ مطالعات ادبيات تطبيقى**، سال سوم، شمارهٔ ١٢، صص ١١٩-١٣٨.

٢٠. نانكت، لاتيشيا (١٣٩٠)؛ «تصويرشناسى به منزله خوانش متون نثر معاصر فرانسه وفارسى»، ترجمهٔ مژده دقيقى، **مجلهٔ ادبيات تطبيقى**، ١و٢، صص ١٠٠-١١٥.

ج: الأطروحة

٢١. الهروط، بلال سالم (٢٠٠٨)؛ **صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية**، رسالة للحصول على درجة الدكتوراه، أردن: جامعة مؤتة.

د: المواقع الإنترنتيّة

22. https://ar.wikipedia.org

کاوش‌نامۀ ادبیّات تطبیقی (مطالعات تطبیقی عربی - فارسی)
دانشکدۀ ادبیّات و علوم انسانی، دانشگاه رازی، کرمانشاه
سال هشتم، شمارۀ ۳۲، زمستان ۱۳۹۷ هـ ش/ ۱۴۴۰ هـ ق/ ۲۰۱۸ م، صص ۱۶۵-۱۸۴

تصویر دیگری شرقی در سفرنامه‌های غادة السمان «بررسی موردی: کتاب شهوة الأجنحة»[1]

هادی نظری‌منظم[2]
استادیار زبان و ادبیّات عربی دانشگاه تربیت مدرس، تهران، ایران
خلیل پروینی[3]
استاد زبان و ادبیّات عربی دانشگاه تربیت مدرس، تهران، ایران
نازنین هدایتی[4]
کارشناس ارشد زبان و ادبیّات عربی دانشگاه تربیت مدرس، تهران، ایران

چکیده
تصویرشناسی به بررسی تصویر «دیگری» در متن ادبی وتعامل وی با «من» (=خود) می‌پردازد. در حقیقت، شناخت خود از طریق دیگری امکان‌پذیر است واحساس هویّت در رویارویی با او نمایان شده و بخش زیادی از این تعامل در ادبیّات سفرنامه‌ها نمود می‌یابد. **غادة السمان** تاکنون پنج اثر در ادبیّات سفرنامه منتشر نموده که مادۀ مناسبی برای مطالعات تصویرشناسی است. این پژوهش با روش توصیفی- تحلیلی و با اتّکا به روش اجتماعی وتطبیقی می‌کوشد تا به بررسی بخش اول از کتاب «**شهوة الأجنحة**» بپردازد. نویسنده، این بخش را به خاور دور اختصاص داده است. هدف از این پژوهش، آن است تا هویّت خود و دیگری وتوهّمات و انحراف‌های فکری متقابل این دو را از یکدیگر بهتر دریابیم. نتایج بیانگر آن است که سفر **غادة السمان** به شرق دور پس از آن بود که وی به از خودبیگانگی روحی مبتلا شد و برای گریز از واقعیّت‌های دردناك وتلاش برای کشف مجهولات عازم این سرزمین شد، اما فرار از واقعیّت‌ها ممکن نشد؛ چه، تصویر لبنان و دمشق از لابه‌لای هر سطر او واز درون هر صحنه‌ای سر برمی‌کشد. ظاهراً سمّان، پیش از این سفر، تحت‌تأثیر برداشت‌های ادیبان رمانتیك غرب از شرق افسونگر وابهام‌آلود قرار داشته است؛ از این رو، تجربۀ وی تجربه‌ای حضوری و مستقیم و در عین حال، متاثّر از تصویرها ومتون پیشین است. سمّان، نخست یك ادیب و بعد جهانگرد است. وی عناصر تابلوهای هنری خود را از واقعیّت های دردناك و یا مسرّت‌بخش برمی‌گزیند و آنگاه صبغۀ ادبی وخیالی بدان می‌بخشد تا به شکلی هنری وتأثیرگذار درآید. با این همه، او واقع‌گرا وصادق است و تا حد امکان، از درافتادن در تعمیم وسیاه‌نمایی پرهیز می‌کند، لیکن، چنان که خود او نیز گفته است دربارۀ شهرها نمی‌توان بی‌طرف قضاوت کرد و واقع‌گرایی دروغ است. وانگهی، درآمیختن با ملّت‌های مختلف و زندگی با آنان، زمینه و بستر مناسبی برای مقایسه و تطبیق پیش روی او نهاده و او را به شیفتگی نسبت به فرهنگ و تمدّن کهن شرق دور و زیبایی وجادوی آن وا داشته است، چنانکه وی را بر آن داشت که مظاهر عقب‌ماندگی، فقر، غرق شدن در مصرف‌گرایی وتمدّن مادی خاور دور را محکوم نماید.

واژگان کلیدی: ادبیّات تطبیقی، تصویرشناسی، خاور دور، من، دیگری، **غادة السمان**، **شهوة الأجنحة**.

---

۱. تاریخ دریافت: ۱۳۹۶/۷/۲۶ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۷/۳/۲۰
۲. رایانامه نویسندۀ مسئول: hadi.nazari@modares.ac.ir
۳. رایانامه: parvini@modares.ac.ir
۴. رایانامه: nazaninhedayati@modares.ac.ir